

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبا مكية

أَلَمَدَّ إِلَهُ الْأَرْضَى لَمْ مَأ فِي السَّمَوَاتِ وَمَأ فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْخَبِيرُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

ما في السموات والأرض كله نعمة من الله وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله ولما قال ﴿الحمد لله﴾، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية كان معناه أنه المحمود على نعم الدنيا كما تقول احمد أخاك الذي كسك وحملك تريد احمده على كسوته وحملاته ولما قال: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة، وهو الثواب.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الحمدين؟ قُلْتَ: أما الحمد في الدنيا فواجب لا أنه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب وأما الحمد في الآخرة، فليس بواجب لا أنه على نعمة واجبة (2) الإيصال إلى مستحقها إنما هو تامة سرور المؤمنين وتكلمة اغتباطهم يلتنون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿الخبير﴾ بكل كلئن يكون.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْعَقُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾.

ثم نكر مما يحيط به علمًا ﴿ما يليج في الأرض﴾ من الغيث كقوله فسلكه ينابيع في الأرض، ومن الكنوز والنفائث والأموات وجميع ما هي له كفات ﴿وما يخرج منها﴾ من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والثواب وغير ذلك ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير كما قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وهو﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿الرحيم الغفور﴾ للمفكرين في أداء مواجب شكرها، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه نزل بالنون والتشديد.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ
الْعَنِيْبُ لَا يَمُرُّ عَنْهُ سِفَالٌ دَرَّةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا
أَصْعَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من نلك قولهم لو قيل: للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج وكم وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات وتصور مقابلة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قببحة كما أن العجف مما يقبح حسنه فسور أثر السمن فيه تصويرًا هو أوقع في نفس السامع وهي به أنس وله آقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محلها والوفاء بها.

فإن قُلْتَ: قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرايين، وتركه المضي على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماد، وإبائه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئًا والمشب به غير معقول. قُلْتَ: الممثل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

يُدْرِبَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّكِرِينَ وَالْمُنْكَرَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الدَّوْمِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾.

واللام في ليعنب لام التعليل على طريق المجاز، لأن التعنيد نتيجة حمل الأمانة كما أن التائب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش ويتوب ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويتوب الله ومعنى قراءة العامة ليعنب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوافي كان نلك نوعًا من عذاب الغادر والله أعلم. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر» (1).

(1) نكره الثعلبي وابن مريويه، الزيلعي 137/3.

= كالجلبليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس»، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق، والله الموفق.

(2) قال احمد: والحق في الفرق بين الحمدين أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية =

﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجِيمٍ
أَبَدٌ ﴿٥﴾.

قولهم: ﴿لا تاتينا الساعة﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، أوجب ما بعد النفي بيلي على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به إلى قوله ﴿ليجزى﴾ لأن عظمة حال المقسم به تؤنن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته، واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وأكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قلنا: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى قلنا: نعم، وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية وأولها مسارعة إلى القلب إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة وأنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئاً واضحاً.

فإن قلنا: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه فبهت أنه حلف لهم بأغلب الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلنا: هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة.

وهي قوله: ﴿ليجزى﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب وقوله: ﴿ليجزى﴾ متصل بقوله ﴿لتاتينكم﴾ تعليلاً له، قرئ: ﴿لتاتينكم﴾ بالتاء والياء ووجه من قرأ بالياء أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم أو يسند إلى عالم الغيب أي لياتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾، أو يأتي ربك وقال: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾. وقرئ: ﴿عالم الغيب﴾ و﴿وعلام الغيب﴾ بالجر صفة لربي وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح ولا يعزب بالضم والكسر في الزاي من العزوب، وهو البعد يقال روض عزيب بعيد من الناس ﴿مثقال ذرة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى مثقال ذرة، وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع على أصل الابتداء وبالفتح على نفي الجنس كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بالرفع والت نصب وهو كلام منقطع عما قبله.

فإن قلنا: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرة كانه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر وزيادة لا لتأكيد النفي وعطف المفتوح على ذرة بأنه فتح في موضع الجر

لامتناع الصرف كانه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر قلنا: يأبى ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في عنه للغيب وجعلت الغيب اسماً للخفيات قبل أن تكتب في اللوح لأن إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح.

﴿الذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من جزأ اليم﴾ وقرئ: معجزين واليم بالرفع والجر، وعن قتادة الرجز سوء العذاب.

وَرَوَى الَّذِينَ آوَأُوا آيَاتِ اللَّهِ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾.

﴿ويرى﴾ في موضع الرفع أي ويعلم أولوا العلم يعني: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحمار وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما، الذي أنزل إليك الحق وهما مفعولان ليرى وهو فصل من قرأ الحق بالرفع جعله مبتدأ والحق خبراً والجملة في موضع المفعول الثاني، وقيل: يرى في موضع النصب معطوف على.

ليجزى أي: وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علماً لا يزداد عليه في الإيقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا، ويجوز أن يريد وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق، فيزدادوا حسرة وغماً.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُرُ عَلَىٰ رَسُولٍ نَّيْتُكُمُ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَرْغَبٍ إِنَّكُمْ لَعَلَىٰ صِرَاطٍ مُّبِينٍ ﴿٧﴾.

﴿الذين كفروا﴾ قريش قال بعضهم لبعض.

﴿هل نلکم علی رجل﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يحدثكم بأعجوبة من الاعاجيب أنكم تبعثون وتنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً. يمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد.

أَفَرَأَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالْعُزْلَىٰ أَلْبَسُوا ﴿٨﴾.

أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك أم به جنون يومه ذلك ويلقيه على لسانه، ثم قال سبحانه: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار فيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجن الجنون وأشدّه طباقاً على عقولهم جعل وقوعهم في العذاب رسياً لوقوعهم في الضلال كأنهما كاشنان في وقت واحد، لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته جعلاً كأنهما في الحقيقة مقترنان، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه ينيبكم.

فإن قلنا: فقد جعلت الممزق مصدراً كبيت الكتاب.

وقرى* غبوتها وروحها وعن الحسن رضي الله عنه كان يغفو فيقبل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان نحن نزلناه وما بنيانه ومبنيها وجدناه غبوتاً من اصطخر فقلناه ونحن راثون منه فباتتون بالشام إن شاء الله. القطر النحاس المذاب من القطران.

فإن قلنت: ماذا أراد بعين القطر؟ قلنت: أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله كما الآن الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه كما قال: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام ﴿بإذن ربه﴾ بامرهم ﴿ومن يزرغ منهم﴾ ومن يعدل ﴿عن أمرنا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرى* يزرغ من أزرغه، وعذاب السعير عذاب الآخرة. عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى.

يَمَلُونَ لِمَا بَشَاءَ مِنْ مَحْرَبٍ وَيَنْتَهِبُونَ كَلْبَابًا يُقَدِّرُونَ رَأْسَهُمْ أَهْلُ أُولَئِكَ أَكْثَرُ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٧﴾.

المحاريب المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يحامي عليها وينب عنها وقيل: هي المساجد، والتمائيل صور الملائكة والنبیین والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبودوا نحو عبادتهم.

فإن قلنت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير قلنت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبي العالية لم يكن اتخاذ الصور إذ ذلك محرماً، ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها لأن التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو تصور محذوفة الرؤوس، وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما والجوابي الحياض الكبار قال:

تروح على آل المخلوق جفنة كجابية⁽¹⁾ السبح العراقي تنهق⁽²⁾ لأن الماء يجبى فيها أي: يجمع جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، وقرى* بحذف الياء اكتفاء بالكسرة كقوله تعالى: ﴿يوم يدع الداع﴾ ﴿راسيات﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمتها ﴿اعملوا آل داود﴾ حكاية ما قيل: لآل داود وانتصب ﴿شكراً﴾ على أنه مفعول له أي: عملوا لله وعبدوه على وجه الشكر لنعمائه وفيه دليل على أن العبادة

قرى* فلما قضى الموت ودابة الأرض الأرضة وهي الدبابة التي يقال لها السرقة والأرض فعلها فأضيفت إليه يقال: أرضت الخشبة أرضاً إذا أكلتها الأرضة، وقرى* بفتح الراء من أرضت الخشبة أرضاً وهو من باب فعلته ففعل كقولك أكلت القوادح الأسنان أكلاً فاكلت أكلاً، والمنسأة العصا لأنه ينسا بها أي يطرد ويؤخر، وقرى* بفتح الميم وبخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس ولكن إخراج الهمزة بين بيئتين هو التخفيف القياسي ومنسأته على مفعالة كما يقال: في الميضة ميضاء ومن سآته أي من طرف عصاه سميت بسآة القوس على الاستعارة وفيها لغتان كقولهم قحة وقحة وقرى* أكلت منسأته ﴿تبيئت الجن﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وجلى، ﴿وإن﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال كقولك تبين زيد جهله والظهور له في المعنى أي ظهر أن الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب﴾ أو علم الجن كلهم

علمًا بيئاً بعد التباس الأمر على عآمتهم وضعفتهم وتوهمهم أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهمك بهم كما تنهكم بمدعي الباطل إذا نحضت حجته وظهر إبطاله بقولك هل تبينت أنك مبطل وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً، وقرى* ﴿تبيئت الجن﴾ على البناء للمفعول

(1) الجابية: أي الماء الجاري على وجه الأرض.

(2) وفوق الإناء، أي إذا امتلا حتى يتصبب.

(3) رواه ابن أبي شيبة 322/10، كتاب: الدعاء، باب: ما نكر عن أبي بكر وعمر والخ.

في أنفسهما آية وإنما جعل قصتهما وإن أهلها أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخرَّبهما وأبدلهم عنهما الخبط والأثل آية وعبرة لهم ليعتبروا ويتعظروا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، ويجوز أن تجعلهما آية أي علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره.

فإن قُلْتَ: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحترف بها من الجنان ما شئت؟ قُلْتُ: لم يرد بستانيين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ إما حكاية لما قال لهم: أنبياء الله المبعوثون إليهم أو لما قال لهم: لسان الحال أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ولما قال: كلوا من رزق ربكم ﴿واشكروا له﴾ أتبعه قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكنل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجرة فيمتلئ المكنل بما يتساقط فيه من الثمر طيبة لم تكن سيخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا نباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وقرئ: بلدة طيبة ورباً غفوراً بالنصب على المدح، وعن ثعلب معناه: أسكن وأبعد.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَنَنٍ ذَرَأً أُكُلٍ غَمْبُوزٍ وَأَنْثَىٰ وَنَحْنُ بِرَبِّهِمْ قَلِيلٌ ﴿١٦﴾

﴿العرم﴾ الجرد الذي نقب عليهم السكر ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروفاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعوهم إلى الله، وينكرونهم نعمته عليهم فكنبهم وقالوا: ما نعرف الله نعمة سلب الله على سدهم الخلد فنقبه من أسفله فغرقهم وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة ويقال: للكنس من الطعام عرمة والمراد المسناة التي عقدها سكرًا وقيل: العرم اسم الوادي وقيل: العرم المطر الشديد، وقرئ: ﴿العرم﴾ بسكون الراء، وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ﷺ، وقرئ: ﴿أكل﴾ بالضم والسكون وبالتنوين والإضافة والأكل الثمر، والخمط شجر الأراك وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعاماً من مرارة حتى لا يمكن أكله، والأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً ووجه من نون أن أصله نواتي أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه

على أن المتبين في المعنى هو أن مع ما في صلتها لأنه بدل، وفي قراءة أبي تبينت الإنس وعن الضحاك تباينت الإنس بمعنى: تعارفت وتعلمت والضمير في كانوا للجن في قوله: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصنقون فيما يهيمونهم من علمهم الغيب ما لبثوا، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة ثابتة قد انطقها الله فيسألها لاي شيء أنت؟ فتقول: لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروب فسألها فقالت: نبت لخراب هذا المسجد فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له وقال اللهم: عم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال: لملك الموت إذا أمرت بي فاعلمني فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرخاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان، فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فإذا سليمان قد خرّ ميتاً ففتحوا عنه، فإذا العصا قد اكلتها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فاكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة. وروى أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سال أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب، روى أن أفريديون جاء ليصعد كرسيه فلما بنا ضرب الأسدان ساقه فكسرها، فلم يجسر أحد بعد أن يدنوا منه، وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وأبتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضي من ملكه.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ رَبُّكُمْ غَفُورٌ ﴿١٧﴾

قرئ: ﴿السبأ﴾ بالصرف ومنعه وقلب الهمزة الفاء، ومسكنهم بفتح الكاف وكسرهما وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها أو مسكن كل واحد منهم، وقرئ مساكنتهم و﴿جنتان﴾ بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان وفي الرفع معنى المدح تدل عليه قراءة من قرأ جنتين بالنصب على المدح.

فإن قُلْتَ: ما معنى كونهما آية؟ قُلْتُ: لم نجعل الجنتين

قرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبعد ويا ربنا على الدعاء، بطروا النعمة وبشمو من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهي، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرزاحل فيها ويتزوبوا الأزواد فعجل الله لهم الإجابة، وقرئ: ﴿ربنا﴾ بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفع به كما تقول: سير فرسخان ويوعد بين أسفارنا.

وقرئ: ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء، والمعنى: خلاف الأول وهو استبعاد مسائرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفهم كأنهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه ﴿أحاديث﴾ يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم وفرقتهم تفريقاً اتخذها الناس مثلاً مضرورياً يقولون ذهبوا أيدي سبأ وتفرقوا أيادي سبأ قال كثير بن أيادي: سبأ يا عز ما كنت بعدكم، فلم يجلب بالعينين بعدك منظر لحق غسان بالشام وأثمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ﴿صبار﴾ عن المعاصي ﴿شكور﴾ للنعم.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قرئ: ﴿صدق﴾ بالتشديد والتخفيف ورفع إبليس ونصب الظن فمن شدد فعلى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقاً، ومن خفف فعلى صدق في ظنه أو صدق يظن ظناً نحو فعلته جهنك وينصب إبليس، ورفع الظن فمن شدد فعلى وجد ظنه صادقاً ومن خفف فعلى قال له: ظنه الصائق حين خيله إغواءهم يقولون صدقك ظنك وبالتخفيف ورفعها على صدق عليهم ظن إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني ومعناه أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إن نزيته أضعف عزماً منه فظن بهم اتباعه وقال: ﴿لاضلنهم لأغوينهم﴾ وقيل: ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها، والضمير في عليهم واتبعوه إما لأهل سبأ أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله ﴿إلا فريقاً﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال: ﴿لاحتكرن نزيته إلا قليلاً﴾ ولا تجد أكثرهم شاكرين.

وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَاطِطٌ ﴿١٢١﴾

﴿وما كان له عليهم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بيّنة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم، وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿حفيظ﴾ محافظ عليه وفعل ومفاعل متأحيان.

أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل: نواتى أكل بشع ومن أضاف، وهو أبو عمرو وحده فلأن أكل الخمط في معنى البرير كأنه قيل: نواتى برير والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خمط لأن الأثل لا أكل له وقرئ: وأثلاً وشيئاً بالنصب عطفاً على جنتين وتسمية اليدل جنتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم وعن الحسن رحمه الله قتل السدر لأنه أكرم ما بلوا.

ذَلِكَ جَزَاءُ مَن كَفَرَ وَأَهْلُ جَزَىٰ إِلَّا لَكُم مَّا كَفَرْتُمْ ﴿١٢٢﴾

وقرئ: ﴿وهل﴾ يجازي وهل نجازي بالنون وهل يجازي والفاعل الله وحده وهل يجزى والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر وهو العقاب العاجل وقيل: المؤمن تكفر سياته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازي بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر، وهو أن الجزاء عام لكل مكافاة يستعمل تارة في معنى: المعاقبة وأخرى في معنى: الإثابة فلما استعمل في معنى: المعاقبة في قوله جزيناهم بما ﴿كفروا﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم قيل: وهل يجازي إلا الكفور بمعنى وهل يعاقب وهو الوجه الصحيح وليس لقاتل أن يقول لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يرد العموم وليس بموضعه الا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا هل يجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسد كلاماً فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وَعَمَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرْقًا بَاطِنًا وَمَا بَدَأْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرًا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمُرُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴿١٢٣﴾

﴿القرى التي باركنا فيها﴾، وهي قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين أو رابية متن الطريق ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وقدرنا فيها للسير﴾ قيل: كان الغادي منهم يقبل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عواً ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سيروا فيها﴾، وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ولكنهم لما مكثوا من السير وسويت لهم أسبابه كأنهم أمروا بذلك وأن لهم فيه.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ليالي وإياماً﴾ قلت: معناه سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين لا تخافون وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً وليالي، أو سيروا فيها لياليكم وإيامكم مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَرَفَعْنَاهُمْ كُلَّ مَرْجِيٍّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٢٤﴾

من الراجين للشفاعة، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التريص ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطأً﴾ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا لمن أذن له الرحمن وقال صواباً⁽²⁾ كانه قيل: يتريصون ويتوقفون ملياً فزعين وهلين حتى إذا فزع عن قلوبهم أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن. تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً ﴿ماذا قال ربكم قالوا﴾ قال: ﴿الحق﴾ أي: القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعت الشفاعة⁽³⁾، وقرئ: أذن له أي أذن له الله وأذن له على البناء للمفعول وقرأ الحسن فزع مخففاً بمعنى فزع، وقرئ: فزع على البناء للمفاعل وهو الله وحده؛ وفزع أي نفي الوجل عنها وأفنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك ذكر الوجل، وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول نفع إلي زيد إذا علم ما المندفع وقد تخفف وأصله فرغ الوجل عنها أي انتفي عنه وفي، ثم حنف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ أفرقع عن قلوبهم بمعنى: انكشف عنها وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما أفاق قال: ما لكم تكلمتم علي تكلكم على ذي جنة أفرقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء، وقرئ: الحق بالرفع أي مقوله الحق ﴿وهو العلي الكبير﴾ نو العلو والكبرياء ليس لمك ولا نبي أن يتكلم نك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِلَىٰ أُو۟لَٰئِكَ يَرْجِعُ أَمْالُكُمْ لَمَّا هُنَّ أَوْ فِي سَبِيلِ طَيْبٍ﴾ (١٧).

أمره بأن يقرهم بقوله: ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للإشعار بأنهم مقررون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد لجم أقواهم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق إلا نرى إلى قوله: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ حتى قال: ﴿سيقولون الله﴾، ثم قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ فكانهم كانوا يقرّون بالسنتهم مرّة ومرّة كانوا يتلعثمون عناداً وضاراً وحذاراً من إزام الحجة ونحوه قوله عز وجل: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّونَ ﴿١٧﴾

﴿قل﴾ لمشركي قومك ﴿ادعوا الذين﴾ عبتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتوهم باسمه كما تدعون الله والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لا يملكون شيئاً﴾ من خير أو شر أو نفع أو ضرر ﴿في السموات ولا في الأرض ومالهم﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك كقوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾⁽¹⁾، وماله منهم من عوين يعين على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية كيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجي.

فإن قلت: أين مفعولاً زعم قلت: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول، وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفاً فلا يصح الأوّل لأن قولك هم من دون الله لا يلتزم كلاماً ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليه وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد، فبقي أن يكون محذوفاً تقديره زعمتموهم آلهة من دون الله، فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: هذا الذي بعث الله رسولا استخفافاً فالطول الموصول لصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله، والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً؛ فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين، تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول الكرم لزيد وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول القيام لزيد.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١٧).

فاحتمل قوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي لشفيعه، أو هي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله، وكأنه قيل إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

فإن قلت: بما اتصل قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ ولاي شيء وقعت حتى غاية قلت: بما فهم من هذا الكلام من أن ثم انتظراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً

(3) قال الزيلعي: غريب: 141/3.

(1) سورة الكهف، الآية: 51.

(2) سورة النبا، الآيتان: 37، 38.

بونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، وأمره أن يقول لهم: بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾، ومعناه: وإن أحد الفريقين من الذين يوحون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجمام الذي لا يوصف بالقدرة لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام لمنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف، قال: لمن خطب به قد أنصفك صاحبك وفي درجة بعد تقمته ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أنزل بالمجانل إلى الغرض وأجهم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوخته بالهويانا، ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصادق مني ومنك وإن أهدنا لكاتب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخبركما الفداء⁽¹⁾

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجز الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه وفي قراءة أبي وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرُنَا وَلَا تَسْتَلُونَ عَمَّا تَمَلُونَ⁽²⁾.

هذا النخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول حيث أسند الإلزام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين وإن أراد بالإلزام الصغائر والزلات التي لا يخلوا منها مؤمن وبالعلم الكفر والمعاصي العظام⁽³⁾.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَيِّنَاتٍ وَنُذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾

﴿إلا كافة للناس﴾ إلا إرساله عامة لهم محيطه بهم لأنها إذا شملتهم، فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإيلاغ، فجعلها حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاة الراوية والعلامة ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ، ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوى له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني فلا بد له من ارتكاب الخطأين.

قُلْ لَكُمْ نِعْمًا يُبْرَأُ بِرِّهَا سَتَجِدُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَعِدُّونَ⁽⁴⁾.

قري: ﴿ميعاد يوم﴾ وميعاد يوم وميعاد يوماً والميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو ههنا الزمان والدليل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فأبدل منه اليوم.

فإن قلت: فما تأويل من أضافه إلى يوم أو نصب يوماً؟ قلت: أما الإضافة فإضافة تبين كما تقول سحق ثوب ويعبر سانية وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعني يوماً أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون الرفع على هذا أعني التعظيم.

فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجئ السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الْآيَاتِ بَدِيلًا وَلَا نَحْسَبُ أَنَّا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٢٠﴾

(2) قال أحمد: فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظام، وعن العظام بما يعبر به عن الهفوات التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه نكر الإلزام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك، والله أعلم.

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجز الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه وفي قراءة أبي وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

قُلْ لَكُمْ نِعْمًا يُبْرَأُ بِرِّهَا سَتَجِدُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَعِدُّونَ⁽⁴⁾.

هذا النخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول حيث أسند الإلزام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين وإن أراد بالإلزام الصغائر والزلات التي لا يخلوا منها مؤمن وبالعلم الكفر والمعاصي العظام⁽³⁾.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢١﴾

وفتح الله بينهم وهو حكمه وفصله أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ لَهُمْ مِمَّا دُونِ اللَّهِ يُرِيدُونَ أَكْفَارًا لَهُمْ فَاذْكُرُوا لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أروني﴾ وكان يراهم ويعرفهم قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به و﴿كلا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة كما قال

(1) قال أحمد: وهذا تفسير مهذب، وافتنان مستعجب رديته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعادته خاطر كائي بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تطايعها متأخر، والفقهاء في مجاللاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد فائقه، والله الموفق.

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾

الليل والنهار بالتنوين ونصب الطرفين وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب أي: تكونون الإغواء مكرًا دائبًا لا تفترون عنه.

فإن قُلْتُمْ: ما وجه الرفع والنصب! قُلْتُمْ: هو مبتدأ أو خبر على معنى: بل سبب ذلك مكرمك أو مكرمك أو مكرمك أو مكرمك على بل تكونون الإغواء مكرًا الليل والنهار.

فإن قُلْتُمْ: لم قيل قال: الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال: الذين استضعفوا قُلْتُمْ: لأن الذين استضعفوا أمر ولا كلامهم فجئ بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جئ بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول.

فإن قُلْتُمْ: من صاحب الضمير في ﴿وأسروا﴾ قُلْتُمْ: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله: ﴿إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿في أعناق الذين كفروا﴾ أي: في أعناقهم فجاء بالصريح للتنويه بنمهم وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال، وعن قتادة أسروا الكلام بذلك بينهم وقيل أسروا التدامة أظروها وهو من الأضداد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا عَنَّا مَوَالِدٌ وَأَوْلَادٌ وَمَا عَنَّا بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٣﴾

هذا تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكنيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أي: الفريقين خير مقامًا، وأحسن نديًا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ: أهل مكة وكانوه بنحو ما كانوه به وقاسوا أمر الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أراونا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

وقد أبطل الله تعالى حسابانهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق تضيقه قال

الذي بين يديه ما نزل قبل القرآن من كتب الله يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجنون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر فكفروا بها جميعًا، وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: أو للمخاطب ﴿ولو ترى﴾ في الآخرة موقفهم وهم يتجانبون أطراف المحابطة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجيب فحذف الجواب، والمستضعفون هم الاتباع. والمستكبرون هم الرؤس والمقدمون.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لَمَّا مَكَدَنَّاكَ عَنَّا مَكْرًا بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٦٥﴾

أولى الاسم اعني نحن حرف الإنكار، لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصابدين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم كأنهم قالوا: نحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بعد إذ جاءكم﴾ بعد أن صمتم على الدخول في الإيمان، وصحت نياتكم في اختياره بل أنتم منعمت أنفسكم حظها وآثرت الضلال على الهدى وأطعتم أمر الشهوة دون أمر النهي، فكنتم مجرمين كافرين لا اختياركم لا لقولنا وتسويلنا.

فإن قُلْتُمْ: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافًا إليها؟ قُلْتُمْ: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فاضيف إليها الزمان كما اضيف إلى الجمل في قولك جئتكم بعد إذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ وكان ذلك أو أن الحجاج أمير وحين خرج زيد لما أنكر المستكبرون بقولهم: نحن صديناكم أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُبُوا أَنفُسَنَا لِمَا نَرَا وَلَا لَنَا عَلَيْهِمْ حِسَابٌ لِّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾

مكر عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فابطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الأجرام من جهتنا بل من جهة مكرمك لنا دائبًا ليلًا ونهارًا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد، ومعنى مكر الليل والنهار: مكرمك في الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي، وقرئ بل مكر

تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾⁽¹⁾، وقرئ يقدر بالتشديد والتخفيف.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَيْتُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ غَيْرُ غَيْرٍ يُعْمَلُونَ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي أَمْسَكْتُم مِّنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على الممثل السائر إياك أعني واسمعي يا جاره ونحوه قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الإهين من دون الله﴾⁽³⁾ وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد، وتعبيرهم أبلغ وخجلهم أعظم وهو أنه ألزم ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه وزاجر المن اقتص عليه والموالة خلاف المعادة ومنها اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وهي مفاعلة من الولي وهو القرب كما أن المعادة من العداوة وهي البعد والولي يقع على الموالي والموالي جميعاً والمعنى: أنت الذي تواليه من نونهم إذ لا موالة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالة الله ومعادة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك.

﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ يريدون الشياطين حيث أطاعهم في عبادة غير الله وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، وقرئ: ﴿نحشروهم﴾ ونقل بالنون والياء، الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والنار فيها مخلى بينهم يتضارون ويتنافعون والمراد أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده، ثم نكر معاقبته الظالمين بقوله:

قَالِيمُ لَا بِيَلِكُ بِمَشْكُرٍ لِّعَمَلٍ تَعْمَا وَلَا مَرَاً نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ أَنَّىٰ كُنْتُمْ بِهَا تَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ونقول للذين ظلموا﴾ معطوفاً على لا يملك، الإشارة الأولى إلى رسول الله ﷺ والثانية إلى القرآن والثالثة إلى الحق والحق أمر النبوة كله ودين الإسلام كما هو وفي قوله:

وَأِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْبَغُ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدِّقَ عَنَّا كَأَن يَبْدُو أَبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبينٌ ﴿٣٩﴾

﴿وقال الذين كفروا﴾ وفي أن لم يقل وقالوا وفي قوله ﴿لالحق لما جاءهم﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى

أراد وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتقريبكم وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التانيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها أي ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب، وقرأ الحسن باللاتي تقربكم لأنها جماعات، وقرئ بالذي يقربكم أي بالشيء الذي يقربكم، والزلفى والزلفة كالكربى والكربة محلها النصب أي: تقربكم قربة كقوله تعالى: ﴿أثبتكم من الأرض نباتاً﴾⁽²⁾ ﴿إلا من آمن﴾ استثناء من كم في تقربكم والمعنى أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقهمهم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة جزاء ﴿الضعف﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فالولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً وقرئ جزاء الضعف على فالولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف مرفوعان الضعف بدل من جزاء، قرئ في الغرفات بضم الراء وفتحها وسكونها وفي الغرفة.

قُلْ إِنَّ رِزْقَ رَبِّي بِسَاطِرِ الرِّزْقِ لَمِنَ يَسَارَةٍ مِّنَ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ مَا يَشَاءُ أَن يَنْفِقَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَجْعَلُ لَهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤٠﴾

﴿فهو يخلفه﴾ فهو يعوضه لا معوض سواء إما عاجلاً بالمال أو بالنعمة التي هي كنز لا ينفد، وإما عاجلاً بالثواب الذي كل خلف لونه، وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه، فليقتصد فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبق طول عمره في فقر ولا يتاولن وما أنفقت من شيء، فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خير الرازقين﴾ وأعلامهم رب العزة بأن كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق، وعن بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجبو وأجد لا يشتهي.

(3) سورة المائدة، الآية: 116.

(1) سورة الطلاق، الآية: 7.

(2) سورة نوح، الآية: 17.

القائلين، والمقول فيه وفي لما من المبادأة بالكفر دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجيب من أمرهم بليغ كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمردين بجراتهم على الله، ومكابرتهم لمثل تلك الحق النير قبل أن ينوقوه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بثوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً.

وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤)

﴿وما آتيناهاهم﴾ كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا كما قال عز وجل: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون، فليس لتكذيبهم وجه متشبه ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله:

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَيْفَ أَنْ نَكْفِرَ (٤٥)

﴿وكذب الذين﴾ تقدّمهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون فما بال هؤلاء وقرئ يدرسونها من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درس الكتاب ودرس الكتب ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس والمعشار كالمرباع وهما العشر والربع.

﴿فإن قلتم﴾ ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

فإن قلتم: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُمْ: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿يبين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»⁽¹⁾.

(2) سورة فاطر، الآية: 2.

(1) تقدم في سورة الأنبياء.

وقوله: ﴿فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدي لها كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها أو يقال: فإنما أضل بنفسي قُلْتُ: هما متقابلان من جهة المعنى لأن النفس كل ما عليها فهو بها، أعني أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها لأنها الأمانة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهدياية ربها وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا نخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٦﴾

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف يعني: لرايت أمرًا عظيمًا وحالًا هائلة ولو وإذ والأفعال التي هي: فزعوا وأخذوا وحيل بينهم كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان وجهه لتحقيقه ووقت الفزع وقت البعث وقيام الساعة وقيل: وقت الموت وقيل: يوم بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في خسف البيداء وذلك أن ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فلا فوت﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه وقرئ: فلا فوت، والأخذ من مكان قريب من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم.

فإن قُلْتُ: علام عطف قوله وأخذوا قُلْتُ: فيه وجهان العطف على فزعوا أي: فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا وقرئ: وأخذ وهو معطوف على محل لا فوت ومعناه فلا فوت هناك وهناك أخذ.

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّخَاذُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾

﴿آمننا به﴾ بمحمد ﷺ لمرور نكره في قوله ما بصاحبكم من جنة، والتناوش والتناول أخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم ويقال تناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضًا وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا مثل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناولها الآخر من قيس نراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه، وقرئ: التناوش همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه وألور وعن أبي عمرو التناوش بالهمز التناول من بعد

إن أعطيتني شيئاً فخذ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت لتعليقه الأخذ بما لم يكن والثاني أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾⁽¹⁾ في قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾⁽²⁾ لأن اتخاذاً السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعمم وكذلك المودة في القرابة لأن القرابة قد انتظمت وإياهم ﴿على كل شيء شهيد﴾ حفيظ مهيمن يعلم أنني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ولا أطمع منكم في شيء، القذف والرمي تزجية السهم، ونحوه بدفع واعتقاد ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَنَفٌ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ أَنْ قَنَفِيهِ فِي التَّابُوتِ، وَمَعْنَى ﴿يَقْنَفُ بِالْحَقِّ﴾ يَلْقِيهِ وَيَنْزِلُهُ إِلَىٰ أَنْبِيَائِهِ أَوْ يرمى به الباطل فيدمغه ويزمقه ﴿علام الغيوب﴾ رفع محمول على محل إن واسمها أو على المستكن في يقذف أو هو خير مبتداً محذوف، وقرئ بالنصب صفة لربي أو على المدح وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث فالغيوب كالبيوت والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جداً.

قُلْ جَاءَ أَلْفُكُمْ وَمَا يُبَدِّئُ أَلْبَطِلُ وَمَا يُبَدِّئُ ﴿٥٨﴾

والحي إِمَّا إن يبدئ فعلاً أو يعيد فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك ومنه قول عبيد:

أتفر من أهله عبيد فالיום لا يبدئ ولا يعيد والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود نبعة ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيده⁽³⁾، و﴿الحق﴾ القرآن وقيل الإسلام وقيل: السيف وقيل: الباطل إبليس لعنه الله أي ما ينشئ خلقاً ولا يعيده، المنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج أي شيء ينشئ إبليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل: للشيطان الباطل لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان من شاط إذا هلك.

قُلْ إِنْ ضَلَّتْ فَأَنَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِي إِلَيَّ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٩﴾

قرئ: ﴿ضللت﴾ أضل بفتح العين مع كسرهما وضللت أضل بكسرهما مع فتحها وهما لغتان نحو ظللت أظل وظللت أظل، وقرئ: أضل بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قُلْتُ: أين التقابل بين قوله فإنما أضل على نفسي

(3) تقدم في سورة الإسراء.

(1) سورة الفرقان، الآية: 57.

(2) سورة الشورى، الآية: 23.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر مكية

من قولهم ناشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه البيت:
تعني نثيشا ان يكون اطاعني

أي: أخيراً.

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

(٥٧)

أَلَمْ نُعَلِّمِ بِهِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَنْفُسٍ ذَاتٍ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نَقْرَأُ عَلَيْكَ بِهَا وَأَنْتَ تَنْصِتُ وَأَنْتَ عَلِيمٌ بِالْغَيْبِ ﴿٥٧﴾

﴿فاتر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها⁽²⁾ وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ: جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي لجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مفتنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حانمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها إلا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يرجع عليها والمعنى أن الملائكة خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن قُلْتُ: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة قُلْتُ: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفاً من الملائكة لهم ستة لجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياة من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح⁽³⁾. وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إنني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فاتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال:

﴿ويقدفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به ﴿من مكان بعيد﴾ وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عانته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ: ويقدفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فقله: بقوله، وقالوا أماناً به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم أماناً في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائلين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قفغهم بالغيب، وهو غيب ومقنوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

وَيَسْئَلُ بَيْنَهُمْ وَيَوْمَ مَا يَنْتَهُونَ كَمَا قِيلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكْرٍ مُمِيزٍ ﴿٥٨﴾

﴿ما يشتهون﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفرز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم أرجعنا نعمل صالحاً ﴿بأشياءهم﴾ بأشبابهم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذاهبهم ﴿مريب﴾ إما من أراه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما فريقتاً وهو أنّ المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً⁽¹⁾.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).

(1) نكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي 142/3.

(2) تقدم في الانعام.